نعم ، لو تصغى الأشباح الى الناظرين لقد كان يسبق إلى ذلك الشبح أننى أعجب له هذا العجب ، وأناجيه هذه المناجاة . ولعله كان يقول وهو يجيب جواب الأشباح .

إن من يذكر لينسى ، وأى ذاكر لم ينس الدنيا ومافيها حين يقبل على الذكرى . وأى ذاكر لا ينسى الدنيا حين يرجع عما حوله إلى غابر كان حوله يوما ثم طواه الزمان طى الفناء . ألا إنها هى الذكرى ، ألا وإنها هى أعلى من الدنيا ، وهى أعلى من الرياض والكواكب والأناشيد ، وهى أعلى من الإنسان ، بل هى أعلى من صاحب الذكرى لو عاد من غابره المطوى إلى جوار الحياة .

لا أظنك غافلا عن شاعرية العقاد التى لا تفارقه فيما نسميه النقد والفهم ، ولا أظنك ترتاب فى أن حظ الشعر من فهم الشعر والفن حظ مقسوم لا يأتيه الريب . ومن الباحثين من يرى أن تحليل النص الأدبى والخاطرة الشاعرة تتداخلان . ومن ليس له حظ الشاعر من الخيال والقبول والتعاطف فاته عمق الفهم . وربما استحالت هذه الفقرات إلى أدب رائع ينافس العمل الفنى من بعض الوجوه ، ولا تحسب عليها هذه المنافسة بل تحسب لها دون غلو أو مجاملة .

ولا أظنك غافلا عن موقف الرفض الذى شاء العقاد أن يسميه باسم المناجاة ليشعرك أنه مصر على تمازج الرفض والقبول ، ولا أظنك غافلا عن الإجابة التى تخيلها ، والدفاع الحلو عن نسيان الدنيا ، وإعلاء الذكرى فوق الجمال والنشيد وفوق الإنسان وفوق الصديق الفقيد . ومايزال فى هذه الذكرى حتى يفصل بينها وبين هذا الصديق . فالذكرى فى نفسها مثل يتسامى على كل صديق . هذا مثل من الجدل أو الحوار الذى أقامه العقاد ليشرح هيكل الفهم وتوزعه بين ما يشبه النقيضين . فى هذا الحوار يظهر لنا العقاد اكتمال الصورة ، وما يبعثه الاكتمال من سؤال . وتبدو الصورة أجل من أن تسمى بالكلمة السيارة المخدوعة كلمة الاستغراق . فالاستغراق ليس آية الفهم ولا آية النضج ولا علامة الاتصال . من يستغرق لا يفهم . هذا ما أرى العقاد يقوله بأساليب مختلفة فى مواضع مختلفة . السؤال عنصر أساسى فى الفهم . ولكل سؤال جواب . ولكنك إذا نظرت مدققا فى هذا الجواب رأيته قد استحال إلى سؤال . واقرأ قوله على الخصوص ألا إنها هى الذكرى . . أعلى من الإنسان ، أعلى من صاحب الذكرى لو عاد . هذه عبارة ظاهرها التقرير ، وفى جنباتها تشيع حرارة السؤال . الفهم فى خاتمة المطاف هو العثور على السؤال الذى يحتاج إلى جواب ، ويسمو فوق كل جواب .